The Concept of Certainty at Ghazzali: From Theology to Sufism

FARID ROUMANI

Faculty of Social Sciences & Humanities
Sidi Mohamed Ben Abdellah University,
Fes- Morocco

Science Step Journal / SSJ

June 2024/Volume 2 - Issue 5

DOI: 10.6084/m9.figshare.26341753

To cite this article: ROUMANI, F. (2024, June). The Concept of Certainty at Ghazzali: From Theology to Sufism. Science Step Journal II (5),214 -226. ISSN: 3009-500X.

Abstract

This article explores various types of certainty: psychological certainty, rooted in strong personal conviction but susceptible to doubts when faced with counter-evidence; cognitive certainty, representing the highest cognitive state of belief; moral certainty, defined by Descartes as sufficient to guide behavior and decisions related to life; and religious certainty, which involves steadfast defense of religious beliefs.

A key focus of this study is to illuminate the methodological approach that allowed philosopher Al-Ghazzali to achieve truth, cognitive certainty, and religious conviction amidst the division of sects and doctrines. This approach bears resemblance to Descartes' quest for certainty centuries later. The research aims to provide insights into how these thinkers navigated complex philosophical and religious landscapes to establish frameworks for certainty in different domains of human understanding and belief systems.

Keywords:

Truth -certainty -Theology – Method- Sufism.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

مفهوم اليقين عند الغزّالي: من الكلام إلى التصوف

فريد روماني

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله،
فاس، المغرب

ملخص:

هناك أنواع مختلفة من اليقين، فالاعتقاد هو يقين نفسيّ؛ عندما تكون الذات التي تملكه مقتنعةً جدًا بحقيقته، لكن يحدث أن تواجه قدرًا قويًّا جدًا من الأدلة المضادة فترغب في التخلي عنه أو تتعذبَ بالشكوك. كما أن الاعتقاد قد يكون يقينا معرفيا، وهو بهذا المعنى؛ عندما يمتلك أعلى حالةٍ معرفيةٍ ممكنة. كما يمكن الحديث عن اليقين الأخلاقيّ الذي عرفه ديكارت Descarte بأنه اليقين الذي يكفي لتنظيم سلوكنا، أو الذي يرقى إلى مستوى اليقين في الأمور المتعلقة بسلوك الحياة. وأخيرا اليقين الديني الذي مؤداه الدفاع عن الاعتقادات الدينية.

لدى من دواعي هذا البحث الملحة، إلقاء الضوء على المنهج الذي مكّن الفيلسوف الغزالي من تحقيق غاية الحقيقة واليقين المعرفي والديني، في ظل تشعب الفرق والمذاهب والنحل، وهو على ما يبدو المنهج الذي سيسلكه ديكارت فيما بعد بقرون عديدة .

وسيحملنا الغزالي معه على بساط المعرفة من حقل معرفي لآخر، من الفلسفة إلى الباطنية إلى علم الكلام، ليحط بنا الرحال في مجال التصوف كمحطة يبدو أنها ستكون غايته الأخيرة.

الكلمات المفتاحية:

الحقيقة . اليقين . علم الكلام . المنهج . التصوف.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

مقدمة:

رغم إن مشكلة الحقيقة من أهم القضايا التي شغلت الفكر الإنساني منذ أقدم العصور، ولهذه المشكلة أهمية رئيسية بالطبع، لأنها مفتاح المعرفة الثابتة، وأساس صياغة القوانين التي يفترض أن الكون يسير بمقتضاها؛ ولو افترضنا أنه لا مجال للحديث عن وجود حقيقة يقينية أو حقيقة تؤدي بنا إلى اليقين.

إن هذه الأفكار أصبحت اليوم تثير تساؤلا لدى القارئ العادي كما المختص، فهي ليست من قبيل المسلمات التي لا تحتاج إلى إسهاب في الشرح، ولكن الواقع أنها لم تكن في الماضي فحسب محل مجادلات ومناقشات وتأمل عميق، بل لاتزال إلى اليوم تثير عدة تساؤلات لدى الباحثين المتعمقين في أسرار العالم الطبيعي والميتافيزيقي، وخاصة لدى المهتمين بالفلسفة الإسلامية كما بالنسبة للمختصين في الدراسات الفيزيائية والكيميائية الدقيقة، ومن أهم اعلام الفلسفة الإسلامية الذين تناولوا مفهومي الحقيقة واليقين بالدراسة والتحليل الإمام المتكلم الصوفي أبو حامد الغزالي، ولذلك جعلت عنوان هذا البحث: "مفهوم اليقين عند الغزالي: من الكلام إلى التصوف."

إشكالية الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن الإشكالية الآتية: كيف انتقل الغزالي في دراسة مفهوم اليقين من البراديغم الكلامي الفلسفي إلى البراديغم الصوفي؟

أهداف الدراسة:

سيكون هدفنا من هذا البحث إذن، بناء إطار نظري للتوجه المعرفي الغزّالي للوصول إلى الحقيقة اليقينية التي سيؤسسها على مصدر آخر غير العقل والتجربة، رغم أنه لا ينفي العقل كلية بل يثمنه ليجعله في خدمة العلم المستوحى من الوحي عن طريق ربطه بالنزعة الصوفية التي تنبني على الذوق والمكاشفة.

منهج الدراسة:

سأعتمد في هذه المقالة منهجين اثنين؛ التحليلي والمقارن، وذلك من خلال تحليل المتن الغزالي وخصوصا المؤلفات التي تطرق فيها فيلسوفنا للموضوع محل الدراسة، ثم المقارنة بين الشك الغزالي وما أسسه ديكارت لاحقا.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

خطة البحث:

أتناول إذن مباحث هذه الدراسة وفق الخطة الآتية:

المبحث الأول: دراسة مفاهيمية: الحقيقة واليقين والحقيقة المعرفية واليقين الديني

المطلب الأول: مفهوم الحقيقة

المطلب الثاني: مفهوم اليقين

المطلب الثالث: الحقيقة المعرفية واليقين الديني

المبحث الثاني: اليقين عند الغزالي من الكلام والفلسفة إلى التصوف

المطلب الأول: اليقين عند الغزالي متكلما فيلسوفا

المطلب الثاني: اليقين عند الغزالي متصوفا

خاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

المبحث الأول: دراسة مفاهيمية: الحقيقة واليقين والحقيقة المعرفية واليقين الديني

من أجل تجلية مفهوم اليقين عند الغزالي؛ لابد من الكشف عن مدلولات بعض المصطلحات المتداخلة والمتقاربة مع مفهوم اليقين، وهي الحقيقة والحقيقية المعرفية واليقين الديني، ومن ثم ينتظم هذا المبحث في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الحقيقة:

يعرف لالاند الحقيقة بأنها المعنى الحقيقي، أي أنها تتعارض مع الخطأ. كما أن الحقيقة تحيل على الواقع بالمفهوم المنطقي، فكل ما هو موجود فهو حقيقي، وما ليس موجودا فهو خطأ . أما أبو الحسن الجرجاني فيعتبرها" اسما لما أريد به ما وضع له. وهي فعيلة من حق الشيء إذا ثبت، بمعنى فاعله، أي حقيق، والتاء فيه للنقل من الوصفية الى الإسمية، كما في العلامة لا للتأنيث. وفي الاصطلاح، هي الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح به التخاطب، والشيء الثابت قطعا ويقينا، يقال حق الشيء إذا ثبت. وهي اسم للشيء المستقر في محله، وما به الشيء هو هو كالحيوان الناطق للإنسان.

لكن على العموم يبدو أن الحقيقة هي كل ما هو صادق وواقعي وثابت ويقيني، أو هي مطابقة الفكر لمبادئه، أو مطابقه الفكر للواقع، والتي عبر عنها الفلاسفة العرب بمطابقه ما في الاذهان لما في الاعيان. رغم ذلك تبقى الحقيقة مفهوما ملتبسا عويصا على التعريف متعددة الدلالة حسب الحقول ومن فيلسوف الى آخر، على الرغم من ارتباطها بالصدق، واليقين، والفضيلة، والسعادة، والمعرفة الحقيقية. كما عبر عنها فردريك هيجل باعتبارها: "مطابقة موضوع ما لتمثلنا، وفي هذه الحالة فإننا نفترض وجود موضوع ينبغي أن يتطابق مع تمثلنا له. وعلى العكس من ذلك، فالمعنى الفلسفي للحقيقة يقتضي مطابقة محتوى لذاته... أما الدلالة الفلسفية الأكثر عمقا للحقيقة فهي توجد في جزء منها في استخدام اللسان، هكذا، نتحدث مثلا عن صديق حقيقي... أو نتحدث عن منتوج حقيقي. "

المطلب الثاني: مفهوم اليقين

أما الحديث عن اليقين فيحيلنا على مفهوم نقيض للشك، ويمكن تعريفه بأنه اطمئنان النفس إلى حكم مع الاعتقاد بصحته. وهو الاعتقاد الثابت الذي لا يزول بتشكيك المشكك.

أما في قاموس أكسفورد فيشير اليقين إلى الاقتناع الراسخ بأن شيئا ما هو السبب، كما حين نقول: علمت بيقين مطلق بأنهم ماتوا.

واليقين أقسام عدة، منها ما هو مرتبط بالمحسوسات، وما هو عقلي خاص ببعض البديهيات أو الأوليات، وما هو موضوعي يفرض نفسه على العقول مثل اليقين العلمي. كما نجده عند الصوفية بمعنى مختلف إذ هو علم وحق وعين: فعلم اليقين ما يحصل

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

عن الفكر والنظر مثل علمنا بوجود الماء المالح في البحر، وعين اليقين ما يحصل عن مشاهده وعيان، كمن مشى ووقف على ساحل البحر وعاينه، وحق اليقين ما يحصل بطريق العلم والمشاهدة معا.

وهذا يجعلنا نلقي الضوء على مقولة "كارل بوبر" بهذا الصدد في كتابه " بحثا عن عالم أفضل":" إن المعرفة تكون بالبحث عن الحقيقة...إنها ليست البحث عن اليقين" . نلاحظ تمييزا واضحا من طرف بوبر بين الحقيقة في مجالاتها المختلفة مثل المعرفة أو العلم أو الأخلاق، أما اليقين فيرتبط أيما ارتباط بالجانب الاعتقادي أو بالجانب اللاهوتي. لذلك سيدافع عن معيار جديد لصحة العلوم أو الحقائق والنظريات العلمية، سيسميه ب: " قابلية التكذيب والتفنيد.theory of falsifiability "

يفضي بنا هذا التحليل إلى إمكانية مناقشة الحقيقة واليقين من منظورات متعددة، منها الفلسفة والدين والعلم، وهو ما يؤكده تنوع النظريات والمواقف حول هذا المفهوم، خصوصا بين الفلاسفة واللاهوتيين، مما سيؤدي إلى ظهور تفسيرات عديدة حوله، وبالتالي محاولة الإجابة عن مجموعة من التساؤلات المرتبطة بهذا الموضوع من قبيل: كيف تتشكل الحقيقة، وخصوصا اليقينية منها؟ وكيف نميزها عن المعرفة الظنية؟ هل أساسها المعرفة الحسية أم التجريبية أم الحدسية، أم أنها تبقى نسبية مرتبطة بالجانب الإيماني والاعتقادي؟ ثم هل الحقيقة مطلقة يقينية أم أنها عرضة للنسبية؟

المطلب الثالث: الحقيقة المعرفية واليقين الديني

اليقين بالفعل هو الخاصية الإبستيمية للاعتقادات، كما أن أغلب الفلاسفة كانوا لا يفرقون بين العلم واليقين، لذلك نجد بداية الفلسفة اليونانية مع سقراط وأفلاطون وأرسطو يبحثون عن اليقين من خلال أسس منطقية ورياضية وهندسية...

وبعد ظهور الاسلام ذاته، وجدته مع أصول البحث عن اليقين، لذلك نجد تعبيرات فريدة في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، فقد جاء في قول الباري: (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) ، ثم الآية: (إن هذا له حق اليقين) ، ثم الآية: (كلا لو تعلمون علم اليقين) . والآيات كثيرة .

أما في السيرة فنجد حديث جبريل عن الإحسان حيث قال: " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك"، وهذا دفع للإنسان باتجاه الإيمان واليقين بوجود الإله ظاهرا وباطنا.

لكن السؤال الذي يمكن أن نطرحه هنا، هو كيف عالج الفلاسفة المسلمون هذا المفهوم؟ وعلى سبيل التحديد، كيف تحقق ذلك عند الغزالي متكلما، فيلسوفا، باطنيا ومتصوفا؟ وما هو المنهج الذي اعتمده حسب كل مجال معرفي؟

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

المبحث الثاني: اليقين عند الغزالي من الكلام والفلسفة إلى التصوف

اعتمد الغزالي على أدوات الكلام والفلسفة لتقرير مفهوم اليقين، لكنه لن يرتضيها لينتقل إلى تقرير مفهوم اليقين استنادا إلى أدوات أخرى مرتبطة بمجال التصوف، وهو ما يأتي بيانه في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: اليقين عند الغزالي متكلما فيلسوفا

الحديث عن الفلسفة الإسلامية يحيلنا على أحد أعلامها الكبار وهو "أبو حامد الغزالي" (450 هـ - 505 هـ / 1058م - 1111م)، باعتباره من الأوائل الذين اهتموا اهتماما خاصا باليقين، فقد جعله موضوعا فلسفيا بامتياز، وأفرد كتبا في الكشف عن الطرق والوسائل الكفيلة ببلوغ اليقين، وأراد بذلك الوصول إلى العلم الذي يوصله لذلك، فميز بداية بين استخدامين مختلفين لهذا المفهوم، الأول لدى المتكلمين والفلاسفة وخصومهم، والثاني عند الفقهاء والمتصوفة.

عاصر الغزالي ثلاث فئات من الباحثين:

1. المتكلمون: وهم الذين يدعون أنهم يحكمون العقل والرأي.
2. الفلاسفة: وقد زعموا أنهم رجال الاستدلال المنطق والبرهاني .
3. الباطنيون: وهم الرجال الذين يعتقدون أنهم أصحاب التعليم المتميزون الذين يتلقون المعرفة مباشرة عن الإمام المعصوم .
4. الصوفية: وقد زعموا أنهم أهل الكشف الصوفي والذوق الالهي والمعرفة اللّدنية.

لذلك، كما سبق وقلنا، فقد قلب آرائهم وحاكمهم انطلاقا معتقداتهم وبعض مناهجهم لاستقصاء مدى توافق دعاويهم مع الحق واليقين، فكان بحق جوهرة عصره، إذ لم يقبل الكثرة كدليل على صواب موقف، ولا القلة علامة على زيفه، فعرف الرجال بالحق، ولم يعرف الحق بالرجال، لم يأخذ الباطل من فم مؤمن، ولم يتوانى عن أخذ الحق من فم كافر.

سيشرع الغزالي في بداية منهجه لتحقيق اليقين، في استقصاء الأدلة العقلية عن مسائل الاعتقاد، ففكر في كل دليل تجريبي حسي أو دليل عقلاني صوري. وقد كان ذلك سببا وراء شغفه في طلب المعرفة، فنجده يقول أن الله قد وهبه تلك الصفة بطريقة فطرية، دون إرادة أو جهد من قبله. فكان أن بدأ يرصد البديهيات ويميزها عن الاعتقادات التي تفرض على المرء من الخارج أي من المجتمع الذي يعيش فيه، بداية عن طريق والديه ومعلميه، مستشهدا بحديث النبي: " كل مولود يولد على فطرته، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه". وهو ما يطلق عليه باللغة السوسيولوجية المعاصرة بفكرة " صدفة الولادة"coïncidence birth ، فأخذ في البحث في الأسباب التي تجعل من الشخص كافرا وقد ولد على الفطرة التي هي الإسلام، وكتب عن ذلك من خلال مرحلتين أساسيتين :

-المرحلة الأولى: بعدما انتابه الشك فرفض كل الاعتقادات السابقة، وكان له بذلك قدم السبق في تقديم منهج الشك scepticism، الذي سيعلنه فيما بعد وبعد قرون عديدة فيلسوف العقلانية "روني ديكارت" حين كتب في تأملاته الميتافيزيقية عن أول

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

أساس في منهجه وهو الشك في كل شيء، أي في كل المعتقدات والمعرفة المكتسبة السابقة عموما، بحيث لا يقبل ولا يثق سوى في البداهات العقلية .axioms لكن، إذا كان شك الغزالي مرتبطا بحال من السفسطة واقتداء بمذهب السفسطائيين في رفض كل معرفة عقلية أو حسية، كما صرح بنفسه قائلا: "فلما خطرت لي هذه الخواطر وانقدحت في النفس، حاولت لذلك علاجا فلم يتيسر، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل...، فأعضل هذا الداء، ودام قريبا من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحم الحال، لا بحكم النطق والمقال"، فإن ديكارت سيشك في الآراء التي نتلقاها في العلوم المختلفة، وليس في المعتقدات الدينية التي نتلقاها عن الآباء و المعلمين في الطفولة فقط كما فعل الغزالي، "سعيا منه إلى التخلص من النظريات العلمية المنقولة كي يمحصها من بعد بالبيان العقلي والاستنباط المنطقي. "

يقول الباحث سليمان دنيا في هذا الشأن، أن الشك قد لعب مع الغزالي دورين هامين:

_دور كان فيه الشك خفيفا سمحا من النوع الذي يعتري كثيرا من الباحثين: رأى فيه تعدد الفرق والملل والنحل، فأراد أن يصنف نفسه ضمن الفرقة الناجية، فألغى بذلك السلطة الموروثة وطرح قداستها، معولا على العقل والحواس، وعلى ظواهر القرآن والسنة. وشرع في فحص تلك الموازين في ضوء تحديد العلم اليقيني.

_ودور كان فيه الشك عنيفا هداما من الصنف الذي يعتري كبار الفلاسفة والباحثين: وهنا بدأ يشك في ميزاني العقل والحواس، فيقبلهما بحجة تارة ثم يرفضهما بدليل تارة أخرى.

- المرحلة الثانية: ستبدأ حين سيتخلص الغزّالي من أزمة الشك بعد أن بصر بنور شرح به الباري صدره دون برهان أو حجة، وهنا عودة مرة أخرى مع ديكارت حين قوله بأن الحقيقة نور يقذفه الله في صدر من يشاء، وهو تعبير قريب من المعرفة الصوفية عن طريق الكشف الصوفي، لذلك يختم حجة الإسلام قوله السابق: "...حتى شفا الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضرورات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين؛ ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله في الصدر" . ليتوصل الفيلسوفان معا لوجود مسلمات عقلية أولية لا تحتاج للبرهان، لكن ضمانة الغزالي في الوثوق بتلك المسلمات هو النور الذي قذفه الله في قلبه، أي بأمر فوق العادة والعقل، بينما ضمانة ديكارت فكانت الانتقال من الشك إلى اليقين اعتمادا على خطوات عقلية حذرة تبدأ من الأنا المفكرة أو ما سيطلق عليه "بالكوجيطو" فيما بعد، ليثبت صدق وجوده عبر ضمانة إلهية تعصمه من تضليل الشيطان .

إننا نجد مناقشة الغزالي للفلاسفة المسلمين في موضوع الحقيقة، ضمن مؤلفيه المشهورين، وهما على التوالي " مقاصد الفلاسفة" ثم " تهافت الفلاسفة"، حيث حاول فيهما أبو حامد أن يرد على أتباع أرسطو من فلاسفة المسلمين أمثال الفارابي وابن سينا، ثم في كتبه الأخرى في الرد على أتباع الباطنية مثل " فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية" وغيره.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

يقول الغزالي في مؤلفه "المنقذ من الضلال": "أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الخدور، وأتوغل في كل مظلمة وأتهجم على كل مشكلة وأقتحم كل ورطة وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفه لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع. لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهرانه، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، و لا متكلما إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه، و مجادلته، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، والاطلاع على غاية كلامه، وجادلته، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته. "

وهذا يدفعنا إلى تشبيه الغزالي بالحكيم "يانغ تسي" في الحكاية الصينية التي يشبه فيها قضية طلب العلم بالبحث عن شيء تائه في الدروب الكثيرة والمتشعبة .

ظهر علم الكلام باعتباره منهجا للدفاع عن العقيدة من المبتدعة والضلال، لكنه لم يكن كافيا بالنسبة إلى الغزالي من أجل تحقيق هدفه والشفاء من مرضه- الشك -، إما لأن علم الكلام قبل المقدمات دون نقدها وتمحيصها، أو بسبب الإجماع التام من خلال الاعتقاد والقبول المباشر بما هو أصل من القرآن والسنة، أو لأن جل المتكلمين كانوا مشغولين بإتحاف خصومهم وإظهار تناقضهم، لذلك اضطر إلى الولوج إلى أحضان الفلسفة، فتأتى له ذلك بعد عامين من الدراسة، ليتوصل إلى تقسيم الفلاسفة واتجاهاتهم، فشك في معظمهم ولم يرض بتصوراتهم، فألف بذلك كتابه "التهافت"، مباشرة بعد تعريفه بمنهجهم وطريقتهم من خلال "المقاصد". وبذلك ففي عشرين مسألة مما ناقش فيها نزعة الفلاسفة، قرر أنهم يعتمدون البرهان اليقيني من خلال المنطق، مما يؤدي بهم إلى المعرفة اليقينية، إلا أنهم في مجال الدين، وهو مجال الميتافيزيقا، يعجزون عن تحقيق نفس الشروط، وبالتالي عدم ضمان اليقين الصلب كما يسميه ديكارت.

سيلاحظ الغزالي مجموعة من الاختلافات بينه وبين الفلاسفة (يقصد الفارابي وابن سينا على الخصوص وأرسطو وفلاسفة اليونان على العموم)، فيطلق على أولئك الذين لا يعترفون بوجود الله اسم الزنادقة، ثم يتم نقده بنفس الطريقة لعلماء الطبيعة، إذ أنهم رغم إيمانهم بكائن قوي وحكيم، إلا أنهم يرفضون حياة ما بعد الموت، ثم سيتجه نحو الفلاسفة المؤمنين ليبدّع بعض آرائهم، ويرفض بعضها الآخر، باعتبارها معارضة مباشرة للدين المنزل، والاعتراف بها سيكون بمثابة اعتبار النبي كافرا.

لم يشغل حجة الإسلام التمييز بين المذاهب المقبولة وغير المقبولة، بقدر ما شغله المبدأ أو الطريقة أو المنهج الذي بموجبه يمكن مواجهة الأفكار التي تبدو مقبولة عقليا ومنطقيا، لكنها قد تؤدي إلى استنتاجات قد تضر بالعقيدة. فقد يكون هناك من يعتقدون أن الإسلام دوغماطيقي مبني على رفض الأدلة العقلية المقنعة .

يرفض إذن الغزّالي علم الرياضيات، ثم سيتجه بعد ذلك إلى المنطق والفيزياء (يبدو أنه لم يرفض علم الطب)، مؤكدا أن الدين لا يأمر برفضها جملة وتفصيلا، لكن يؤكد من جهته أن الطبيعة لا تعمل من تلقاء نفسها، بل هي بيد الله باعتباره العلة الأولى.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

لذلك سيعتبر يقين الوحي أو الحقيقة المستوحاة كمعيار للتمييز بين الحقيقة والخطأ، وسيعارض الفلاسفة كما قلنا في المسائل العشرين، حيث سيصف ثلاثة منها فقط بالكفر، وهي: نفي بعث الاجساد، ونفي علم الله تعالى بالجزئيات واقتصاره على الكليات، وأخيرا إثبات أزلية العالم وحدوثه.

ويشير "آسين بالاسيوس" في فصلين عن الغزّالي والفلاسفة، إلى الضرر الهائل الذي لحق بالفلسفة بسبب النقد الذي فشل فيه المعلم في الهجوم على الفلسفة، مما سيؤدي حسب قوله إلى" إفلاس المعرفة والإمكانية المطلقة للإيمان في البحث عن الحقيقة. "

لكن هذا الموقف سيجد معارضة شديدة من طرف الباحثين المتأخرين الذين سيدافعون عن الغزّالي باعتباره أحد رواد النزعة الفلسفية العقلانية الذين كان لهم دور كبير في التأثير في المعرفة الإسلامية وإخراجها من الدوغمائية والانغلاق، إذ لم يكن هدفه ضرب الفلسفة بقدر ما كان بحثه جادا من أجل الدفاع عن العقيدة، ولكونه لم يكفر الفلاسفة جميعا بل بعضهم فقط.

ونتذكر في هذا الصدد، الانتقاد الذي طرحه الراحل عبد الرحمن بدوي حين اعتبر أنه" من السذاجة أن يقال إن كتابا من الكتب أو هجوما لمؤلف مهما كبر قدره، قد قضى على علم راسخ كالفلسفة، فكم من كتب وردود ومناقضات قد ألفت ضد الفلاسفة فلم تزعزع مكانتها. فالحارث المحاسبي الصوفي الكبير، وأبو علي الجبائي أحد كبار رجال المعتزلة، وأبو الحسن الأشعري مؤسس مذهب الأشعرية، وأبو بكر الباقلاني، كل أولئك قد تصدّوا للرد على الفلاسفة بعامة، ونحو هؤلاء كثيرون عاشوا وكتبوا قبل الفارابي وابن سينا، فلم يمنعوا من ظهور هذين العلمين الكبيرين في الفلسفة. "

ويدافع بدوي عن رأيه هذا، بأن علماء كبارا بعد الغزّالي لم يأتوا على ذكر كتابه تهافت الفلاسفة، من ضمن المشتغلين بالفلسفة في الشرق، أمثال الفخر الرازي والشهرستاني والتفتازاني والإيجي وأبو البركات البغدادي وملاّ صدرا الشيرازي، وربما كان أثره عند المتكلمين أكبر.

المطلب الثاني: اليقين عند الغزالي متصوفا

رأينا كيف سعى الغزّالي إلى اليقين وهو متكلم وفيلسوف، وقلنا أنه لم يطمئن للمنهج ذاك، فكيف سيترسخ لديه المفهوم اعتمادا على التصوف؟

يبدو أن الغزّالي قد ارتقى ببحثه بأن طريقة التصوف هي أكثر الطرق وضوحا وبسطا، وبالتالي فقد فضل التصوف على علم الكلام وعلى الفلسفة، واعتبره أساسا للوصول إلى الحقيقة باعتباره المصدر الحقيقي للعقيدة الدينية ومفتاح الوصول الى اليقين. ورغم اعتباره في "المنقذ من الضلال" أن فكرة الكشف هذه، من طريقة الصوفية، فقد امتاز عن غيره بجعلها مفتاح العلم ومصدر العقيدة الدينية. وقد قال في الإحياء أن العلوم التي ليست ضرورية وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال يختلف الحال في حصولها،

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

فتارة تهجم على القلب كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري وتارة تكتسب بطريقة الاستدلال والتعلم، والأولى تسمى إلهاما والثانية تسمى اعتبارا أو استبصارا. والواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى قسمين:

إلى ما لا يدري العبد أنه من أين حصل له وكيف حصل، وإلى ما يطلع عليه على السبب للاستفادة منه ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب. فالأول يسمى إلهاما ونفثا في الروع، والثاني يسمى وحيا ويختص به الأنبياء.

لقد صرّح إذن الغزّالي، بأن التصوف مرحلة تأتي في مرحلة ثانية بعد مرحلة النظر وذلك في كتابه "ميزان العمل"، وبذلك يستمر في التأكيد بأن أهل التصوف قد علموا ذلك فمالوا إلى العلوم الإلهامية وابتعدوا عن العلوم التعليمية المكتسبة، فلم يدرسوا العلوم ولم يحصلوا أصنافها ولم يبحثوا في الأدلة التي تذكرها، بل مالوا إلى اعتبار البحث عن طريق المجاهدة ومحو الصفات المذمومة والاقبال على الله تعالى باعتباره المتولي لقلب العباد والمتكفل بالنور الذي يلقى في قلوبهم والذي يفيض عليهم برحمته ويشرح صدرهم، فتنكشف بذلك أسرار الملكوت وينقشع حجاب الأمور الإلهية كما انكشف للأولياء والأنبياء فيما قبل، لا بالتعلم، بل بالزهد والإقبال على الله بتفريغ القلب من أمور الدنيا.

لا يقتصر الغزّالي إذن على المقارنة بين علماء الكلام والمتصوفة بل يعقد فصلا في" الإحياء" خاصا بذلك. فنجده يقول: "اعلم أن عجائب القلب خارجة من مدركات الحواس، لأن القلب أيضا خارج عن إدراك الحس. وما ليس مدركا بالحواس، تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس، ونحن نقرب ذلك إلى الافهام الضعيفة بمثالين: أحدهما أنه لو فرضنا حوضا محفورا في الارض، احتمال أن يساق إليه الماء من فوقه بأنهار تقع فيه. ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض، ويرفع منه التراب الى أن يقرب من مستقر الماء الصافي فينفجر الماء من أسفل الحوض، ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم، وقد يكون أغزر وأكثر. فذلك القلب مثل الحوض، والعلم مثل الماء، وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار. "

وبذلك يتمثل أساس الحقيقة أو المعرفة اليقينية في الذوق والمكاشفة كمنهج أساسي بشكل عام. وهو ما أكد عليه العديد من رجالات الصوفية مثل السهروردي بقوله بأن المنهج الذوقي هو: "الآلة الواقعية للفكر جعلناها مختصرة مضبوطة بضوابط قليلة العدد كثيرة الفوائد" . فيكون بذلك مصدر المعرفة واليقين لدى الصوفية هو الذوق الوجداني والمكاشفة، ولا مجال للالتفات إلى العقل بمسلماته ومبادئه.

خاتمة:

توصلت من خلال هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج، أجملها فيما يأتي:

- وقفنا على كيفية شك الغزالي الذي يماثل فيه الشك الديكارتي، وكيف انتقد مناهج الفلسفة، بحيث قدم الشك على اليقين، وانتقد أحكام الفلاسفة المبنية على العقل والحس معا، وكيف نظر إلى القياس البرهاني للأورغانون الأرسطوطاليسي أو المنطق عموما،

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

فحاول بيان عجزه عن الاستدلال في القضايا المتعلقة بعالم الغيب والشهادة، حيث تظل قضاياهم البرهانية كلية كمقدمات في البرهان تناقض العقل والطبيعة والبديهة.

• ثم رأينا كيف مثل الشك عند الغزالي بداية للوصول إلى اليقين، فكان على حق سباقا لهذا المنهج، وكيف كان ينزل إلى مستوى العامة فيصور لهم الحقيقة بالقدر الذي يطيقونه، ثم يصعد إلى مستوى الخاصة حينا آخر فيصور لهم اليقين واضحا جليا.

• ثم تبين لنا بذلك تشابه بين منهج الغزالي ومنهج ديكارت شكلا، واختلافهما مقصدا وغاية، فنحى بالغزالي نحو التصوف كطريقة لاعقلانية ولا منطقية، بينما اتجه بديكارت إلى اكتشاف الهندسة التحليلية ووضع مبادئ للميكانيكا، وتفسير ظواهر الكون على منوالها .

• وأخيرا توصلنا إلى كيفية دعوته من يتبع هذا المنهج إلى ضرورة التوفيق بين الدين والفلسفة، رغم أن استدلالاتهم قد تتهاوى أمام الفطرة ومنهج الوحي، وكيف صار على نفس المنهج المتكلمون من خلال طرق شبيهه بطرق الفلاسفة، فتهاوى منهجهم في الجدل والتأويل والخطابة، لنجد الغزالي في الأخير يسلم قلبه لنزعة صوفية خالصة، باعتبار أن يقينها يوافق ما في القرآن الكريم من خلال التجربة الذاتية والتأمل في أعماق الإنسان، فتحقق لديه اليقين كتصديق ينغلق معه للشك كل باب، والمعرفة الصوفية كأداة للمعرفة انطلاقا من العقل العلمي.

ان تعميق البحث والنظر في منهج باقي الفلاسفة المسلمين كابن سينا والفارابي وابن رشد وغيرهم في تقرير مفهوم اليقين؛ يتيح تشكيل أصول كلية لمفهوم اليقين في بنية الفلسفة الإسلامية، وهو ما يمكّن من المقارنة مع ما هو مقرر في الفلسفتين الحديثة والمعاصرة، وأحسب أنه سيفضي إلى نتائج ذات قيمة.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

قائمة المصادروالمراجع العربية:

- الجرجاني، أبو الحسن. (2010). معجم التعريفات. تحقيق محمد صديق المنشاوي. دار الفضيلة. القاهرة. مصر.
- السهروردي، شهاب الدين. (2010). حكمة الإشراق. مراجعة وتقديم إنعام حيدورة. دار المعارف الحكمية.
- الغزالي، أبو حامد محمد. (2005). إحياء علوم الدين. ط 1. دار ابن حزم. بيروت. لبنان.
- الغزالي، أبو حامد محمد. (2016). المنقذ من الضلال. بقلم د. عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة.
- القاسمي، علي. (1988). "أبحاث ودراسات في المصطلحية والترجمة والتعريب". اللسان العربي: العدد 30 يوليوز. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. مكتب تنسيق التعريب:81_97 .
- القرآن الكريم. سورة التكاثر.
- القرآن الكريم. سورة الحجر .
- القرآن الكريم. سورة الواقعة .
- بدوي، عبد الرحمن. (1988). "أبو حامد الغزالي.. دراسات في فكره وعصره وتأثيره، أوهام حول الغزالي". سلسلة ندوات ومناظرات:9. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس:241_ 252.
- جميل، صليبا. (2008). المعجم الفلسفي. ج 2. دار الكتب اللبناني. بيروت. لبنان.
- دنيا، سليمان. (1965). الحقيقة في نظر الغزالي. دار المعارف بمصر. القاهرة.

قائمة المراجع الأجنبية:

- André, Lalande. (2010). Vocabulaire Et Critique De La Philosophie . Quadrige. Puf. VRIN. PARIS.
- Asin, Palacios. (1935). La espiritualidad de Algazel y su sentido cristiano. Estudia islamica.
- F, Hegel. (1979). Encyclopédie des sciences philosophiques. Traduction de B. Bourgeois. Ed vrin.
- Farid, Jabre. (1958). La notion De Certitude Selon Ghazali. librairie philosophique J .
- Popper, Karl. (1996). In Search of a better world: lectures and essays from thirty years. Translated by Laura .J. Bennet. Routledge. London and New York.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved